الفكرة الدينية ودورها في البناء الحضاري عند مالك بن نبي

بومعزة هجيرة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية –جامعة معسكر–

تمهيد:

يعد الدين من أقدم الظواهر البشرية وأشدّها تأثيرا على حركة المجتمعات عبر مسيرة التاريخ فكّل المجتمعات _القديمة منها والحديثة_ هي مجتمعات دينية من حيث سلوكها أي حتى المجتمعات الملحدة لها ذات الطواعية والانقياد السلوكي تجاه منظومة من _الأفكار ، بحيث يتشّكل لديها نسق اعتقادي وولاء وحماس دعوي إليها يشبه ولاء وحماس التدّين، فالدين فطري لدى البشر وإن خفيت أو تفاوتت مظاهره وتأثيراته[1] ،فإلى أي مدى تساهم الفكرة الدينية في تغير المجتمعات وبناء الحضارة ؟

تكشف دراسات الحضارات الإنسانية عن الدور الذي قام به الدين في بنائها، فقد أصاب دارسوا الحضارات الذين رأوا أنه لم تنبثق حتى الآن أية حضارة من غير أن يجمعها الدين ويوحد مجتمعها، فهو دائما كان الرابطة العليا التي تلتقي فيها نوازع الأفراد فتشدهم بقوة إليها وتوحد تطلعاتهم وطموحاتهم، وتنظم سلوكهم، فتوجه بهم عاطفة الإخاء والتعاون داخل المجتمع الحضاري الواحد ومن ناحية أخرى تؤمن لهم وحدة الصمود والوقوف أمام التحديات الخارجية التي تواجه الحضارة إبان مسيرتها. ذلك أن الدين عند تمكنه في المجتمع يشكل في ذاته هدفية عليا تحقق الحضارات المختلفة من خلالها جل تطلعاته، وتعبر عن حسها في الإنجاز والإبداع كما بدت الحالة دائما في المسيرة الإنسانية الحضارية.[2]

والذي يتأمل تاريخ الحضارة الإنسانية سرعان ما يكشف أن الفكرة الدينية كانت دائما بمثابة حجر الزاوية في صنع الحضارات إيجابا أو سلبا. فتقدم الإنسان كان يتم وفق عملية متوازية بين نتائج العقل وإمكاناته، وبين عطاء الإيمان الذي يمثل شحنات الدفع في مسيرة الإنسان الحضارية وتاريخ الحضارة يشهدنا على أن الإنسان ما فتئ يمد ببصره صوب ماوراء الحقيقة الأرضية وتجاوز الحقائق الملموسة، ذلك لأن الرؤية العقلية الخالقة تمثل نظرة أحادية الجانب لم تحقق للإنسان تطلعاتها صوب الحقيقة الإيمانية.

معنى ذلك أن الفكرة الدينية تمثل أساسا حقيقيا في البناء الفكري للحضارة، إذا ما نظرنا إلى مفاهيم الحضارة بوصفها كلا مركبا لا يقبل التجزئة.

والملاحظ أنه أول من حاول إبراز الفكرة الدينية في تكوين الحضارة المفكر الإسلامي "عبد الرحمان ابن خلدون". الذي يقول في فصل بعنوان:"في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية وأثر عظيم من الدين على الجملة". والسبب في ذلك أنهم بخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجمعهم أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم[3]

وفي فصل بعنوان:"إن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها". والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد اللذين في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة. وهذا كما وقع لعرب صدر الإسلام في الفتوحات.

ويبين ضرورة التجربة الدينية للمجتمع البشري والدور الكبير الذي تلعبه في السياسة المجتمعات مقارنا بين مصادر المعرفة التي تتبلور في الوحي والعقل مؤكدا المكانة الفوقية للوحي متحدثا عن الأخطاء المنهجية والموضوعية التي يمارسها العقل رافضا خرافة التنجيم وما يرتبط به من فعاليات لا تقوم على الدين والعقل، والمنطق ساردا في النهاية لعدد من الممارسات والتجارب التي عرفها الإنسان منذ التاريخ[4].

يعتبر "توينبي" من أهم الذين فسروا حركة التاريخ، وفق العامل العقائدي فهو يرد الحضارات إلى الأديان ولا يعتبر الإمبراطوريات مقياس الحضارة على العكس أنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة، إذ تلجأ الأقلية المسيطرة إلى التوسع حين تفقد مقومات الإبداع. وهي لا تحمل إلا سلاحا مؤمنا، ولاتقدم حلولا جذرية لمشكلات مجتمعاتها على عكس ذلك الأديان، إذ وراء كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تسير مجرى التاريخ، وإذا كان هناك مستقبل لحضارة من الحضارات فذلك في حدود هذه الأديان وبسبب منها[5].

ويرى "توينبي" أن شخصيات التاريخ لن تكون قابلة للفهم إلا إذا نظر إليها باعتبارها أدوات للنشاط الروحاني،و الإنسان إذ ينشر عقيدة روحانية، إنما يؤدي فعلا اجتماعيا أعظم بكثير مما يتهيأ له تحقيقه باستخدام الطرائق المادية البحتة، فللعقائد الدينية —وفق رأيه– دور خطير للغاية في مجريات التاريخ. وإذا كان "توينبي" يعتبر الحضارة

كلا متماسكا، فإنه لا يفصل في تكوين الحضارة –الجانب الروحي عن الجوانب الحيوية الأخرى. ويؤكد ذلك "ألبان ويدجيري" حيث يقول:"إن تفسير توينبي النهائي للتاريخ تفسير ديني في جوهره"[6].

ويبين أن إلحاح "تونبي"على الروحانية وبخاصة في تفسيره الأساسي للتاريخ، يتضمن حقيقة الفردية، ذلك هو نمو الشخصية الداخلية فيما يتيح للكائنات البشرية الفردية إتمام هذه الأفعال الخلاقة في ساحات العمل الخارجي الذي يكون السبب في نمو المجتمعات المطرد.وبذلك يبين "توينبي" أهمية الدور الذي تلعبه الفكرة الدينية خلال التاريخ.[7]

الأثر التغييري للفكرة الدينية في عناصر المعادلة الحضارية :

يرى مالك بن نبي أن أساس أي مشروع تغييري يعود بالدرجة الأولى إلى الفكرة الدينية من خلال وظيفتها الاجتماعية في صياغة الشخصية الحضارية وبناء العلاقات الاجتماعية كما ذكر سابقا.[8] فهو لا يقصر مفهوم الدين في نسق من الأفكار الغيبية فحسب، كما لايقصرها على الدين السماوي، بل هو عنده قانون يحكم فكر الإنسان ويوجه بصره نحو أفق أوسع، ويروض الطاقة الحيوية للإنسان ويجعلها مخصصة للحضارة[9] وهذا القانون فضلا عن أية يغذي النفسية العامة، فإنه يدخل مباشرة في، العناصر الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا.[10]

ويرجع مالك بن نبي إلى التاريخ ليبحث عن مدى مصداقية هذه الفكرة ليجد أن الدين كان ما وراء كل المنجزات البشرية، وهذا القانون الدافع للحضارة، عندا بن نبي لا تجده في الحضارتين الإسلامية والغربية فقط بل تبعداه إلى بقية الحضارات التي سجلها تاريخ الإنسانية كالديانة البوذية في الحضارة البوذية، والبرهمية في الحضارة البرهمية أي: أن كل حضارة في أساسها ذات مبعث ديني، فحينما عرّف ابن نبي الحضارة طبق عليها آليتين أو منهجين متكاملين هما:

"المنهج التحليلي" و"المنهج التركيبي"، على اعتبار أن الحضارة عنده تساوي: **إنسان+تراب+وقت** ولذلك يردّد دائما أن رجل الفطرة والتراب والوقت هو الرصيد الذي تضعه العناية الإلهية بين يدي أيّ مجتمع يريد النهوض.[11] وتبقى هذه العناصر ساكنة ما لم تتدخل الفكرة الدينية محدثة الشرارة الروحية التي تجعل من العناصر الأولى ديناميكية متحركة في إطار التاريخ

وعلى هذا الأساس يرى "مالك بن نبي" أن كل حضارة تمّر بثلاث مراحل حيث تسمى الأولى بمرحلة الروح: وفيها يتحرر الفرد من هيمنة الغريزة وتخضع لسلطة الروح، وتصل شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قمة كثافتها فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشّد بعضهم بعضا وهي في الحضارة الإسلامية تكافئ المرحلة النبوية[12] التي شهدت نوع من القيم الجديدة في نفسية الإنسان. الذي استطاع أن يستثمر ويستغل العناصر المتوفرة إليه من: (وقت، تراب) وبالتالي الدين الإسلامي استطاع أن يركب هذه العناصر ويؤرخ "بن نبي" نهاية هذه المرحلة الإسلامية بمعركة صفين باعتبارها المؤشر لبداية المرحلة الثانية _مرحلة العقل_ والتي تنعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتج عن توسع المجتمع الوليد، حيث تكف فيه الروح عن السيطرة المطلقة على الغرائز ويبدأ عهد العقل ويعادل هذا المنعطف في الحضارة الإسلامية المرحلة الأموية والعباسية، وبحسب تعبيره "هو منعطف للعقل". غير أن هذا العقل لا يملك سلطة الروح على الغرائز، وحين إذن تشرع الغرائز في التحرر من قيودها بالتدريج على الصورة التي عرفناها في عهد بني أمية، إذ أخذت الروح تفقد نفوذها كما كف المجتمع عن ممارسة ضغطه على الفرد وطبيعي إلا تنطلق الغرائز دفعة واحدة وإنّما تتحرر بقدر ما يضعف سلطان الروح.[13]

وفي هذه المرحلة تنقص الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، إن كانت الحضارة نفسها تبلغ أوجها فتزدهر العلوم والفنون فيها، ولكن مرضا اجتماعيا يكون قد بدا وإن نكن أثاره المحسوسة لم تظهر بعد إن الطبيعة تستعيد سيطرتها على المجتمع والفرد شيئا فشيئا.[14]

وفي هذه المرحلة تنقص الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، إن كانت الحضارة نفسها تبلغ أوجها فتزدهر العلوم والفنون فيها، ولكن مرضا اجتماعيا يكون قد بدا وإن نكن أثاره المحسوسة لم تظهر بعد إن الطبيعة تستعيد سيطرتها على المجتمع والفرد شيئا فشيئا. [15]

ثم تدخل الحضارة طورها الثالث أي مرحلة الغريزة وهي طور الانحطاط والانحلال، ولا يعود للفكرة الدينية فيه من وظيفة اجتماعية، وتعود الأشياء كما كانت في مجتمع منحل، وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بانحلال المجتمع إلى ذرات لا روابط بينها، وتنتهي بهذا دورة الحضارة.[16]

وهذا الرّسم يوضّح لنا ما ذكرناه سابقا:

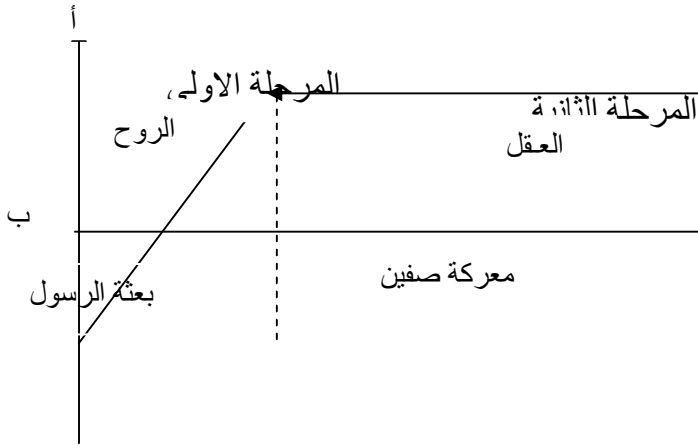
أ
المرحلة الاولى
المرحلة الثانية
الروح
العقل
ب
معركة صفين
بعثة الرسول

وبالتالي نستنتج من خلال هذا أن للدين دور كبير في بناء المجتمع

أكثر من أيّ فكرة أخرى لأن هو الوسيلة الروحية أن تبني الأشخاص يخاطب الروح وهذا هو الجانب المهّم الذي يقوم عليه العلاقات الاجتماعية لأن هذه الأخيرة ماهي إلاّ _ذلك الشعور الاجتماعي_ الموّحد الذي يكن من خلاله أن نقوم بعمل مشترك بناءه، والشيء المهم الذي نستخلصه من هنا هو أن ابن نبي يخاطب على وجه التحديد الشعوب الإسلامية التي خرجت من الإسلام وهي لا تملك إلا شيئا واحدا إيجابيا هو الدين وتكاد تضيفه هو الآخر في غمار الجهود المبذولة من أجل النهضة دون أن نشترك في تحديد الأهداف والاتجاهات [17]

لذا يحاول مالك بن نبي أن يعيد للشعوب الإسلامية ثقتها بنفسها خاصة ونحن في القرن العشرين نعيش في عالم يبدو فيه امتداد الحضارة الغربية قانونا تاريخيا لعصرنا فيحذر من خطر التخلي عن الدين حتى لا يسود الفراغ الروحي، لذلك يبين ابن نبي أهمية الدين وكيف يمكن استغلاله لأنّه القاعدة الأساسية التي تبنى من خلالها عالم الأشخاص، وبالتالي تنعكس العلاقة التي تسود عالم الأشخاص على جميع النشاطات، وتحدّد لنا مدى فاعليتها.[18]

وبناءا على ما سبق يمكننا إيضاح العلاقة القائمة بين الدين باعتباره جوهرا تكمن فيه قوة التركيب وبين الحضارة باعتبارها عناصر يشملها ذلك التركيب، وكذا بين البعد التغييري للفكرة الدينية، وقابلية استقطاب هذا التغيير وتجسيده واقعيا في مختلف المجالات .

خاتمة:

من خلال ما تم ذكره سابقا يتضح لنا أن الحضارة وفق منظور مالك بن نبي لا يمكن أن تقوم لها قائمة إلا بإيعاز من الفكرة الدينية، فهي عنده بمثابة القلب أو الشريان الذي يضخ الحضارة بأكملها و يربط بين ميدان الثقافة(المبدأ) وميدان الحضارة(المنطق العملي) الذي يتحقق في المنجزات الواقعية لهذه الثقافة إذ يبدو أن

الخلفية التي يستند عليها بن نبي في ذلك هي: محاولة إبراز الأثر والمكانة التي تحتلها الفكرة الدينية في عملية التغيير الحضاري لأنه لا يمكن لأي حضارة أن تبرز إلى التاريخ إلا عبر بوابة الفكرة الدينية وكأن هذه الخيرة هي المبدأ أو الأصل في وجودها، بل هي الغاية نفسها التي ينشدها ذاته باعتباره العصب الرئيسي الذي ينقل هذه الفكرة من سماء الكائن الذي تطاله عملية التغيير، فيتغير الإنسان ويستطيع تغيير التراب والوقت وهذا التغيير إنما يعني انتقال القيم والثقافة من الحالة الدنيا(انعدام الفعالية إلى الحالة الفعالية الظاهرة في الواقع عملاً وسلوكاً منجزا ومحققا)

ولذلك يعتبر الإنسان مفتاح الحضارة–الكائن المتغير– من هنا إذا ما تأملنا المعادلة الحضارية(إنسان+تراب+وقت بتركيب من الفكرة الدينية) نجد أن الفكرة بصفة عامة والفكرة الدينية بصفة خاصة هي المبدأ الذي بواسطته أن نجد المنافذ التي تربط بين العناصر السابقة، لأن وجود هذه العناصر بدون الفكرة الدينية تنعدم معه الحضارة. فقد نجد في التاريخ إنسان وتراب ووقت ولا نجد حضارة، ولذلك كانت أي إستراتيجية تغييرية بسبب الفكرة الدينية ألا وإنها تنشد التغيير في ذاتها.

ولعل ما طرح يكشف لنا عن شيء في غاية الضرورة وهو أن مالك بن نبي سعى من خلال طرحه إلى مقاربة الحالة الواقعية التي يعيشها العالم العربي الإسلامي آنذاك محاولا تبيين جوانب النقص والقصور الحضارية والثقافية فيه لأن هذا العالم ومنذ عصر ما بعد الموحدين أضحى يتخبط في انحطاط لازلنا نعيشه إلى حد اليوم، والحل في نظر مالك بن نبي لا يكون إلا في تغير الحالة الواقعية المنحطة وذلك بنقلها إلى نفس نقطة الانطلاق الأولى التي كانت فيها الحضارة الإسلامية في أوج تطورها وازدهارها الثقافي والروحي، ولذلك فإنه من الأهمية بما كان أن نبرز دراسة استشرافية تكشف لنا عن آفاق التغيير ومدلولاته انطلاقا من الحالة الراهنة التي يواجهها العالم الإسلامي .

الهوامش :

(1)فارس عزيز المدرّس، الرؤية الآن–دراسة تحليلية لعملية التغيير الحضاري و للواقع السياسي المعاصر–، دار الكتاب الثقافي، الأردن، د(ط)، 2004.ص70.

(2)– نقلا عن مذكرة لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية، الأخضر شريط، مشكلة التاريخ عند مالك بن نبي، جامعةالجزائر، 1985–1986.ص24

(3)آمنة تشيكو، مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي و أرنولد توينبي،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر،د(ط،س)،ص121 .

(4)المرجع نفسه.ص122.

(5) ابن خلدون، المقدمة،ص ص106–107.نقلا عن: سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، دراسة في ضوء الواقع المعاصر، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1 ، 1993.

(6)فؤاد محمد شهل، توينبي... مبتدع المنهاج التاريخي،ص ص48–49. نقلا عن: سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي.

(7)ألبان ويد جيري، المذاهب الكبرى في التاريخ،ص33.نقلا عن: سليمان الخطيب، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي.

(8) المرجع نفسه.ص332.

(9) نوره خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية)، الدار السعودية–الرياض،ط1997،1،ص110.

(10)مالك بن نبي، القضايا الكبرى، دار الفكر دمشق، د(ط)، 1978.ص110.

(11) المصدر نفسه،ص110.

(12) مالك بن نبي، بين الرشاد و التيه، دار الفكر، دمشق، د(ط)، 1978.ص60.

(13)محمد شاويش، مالك بن نبي و الوضع الراهن، دار الفكر، دمشق، ط01، 2007.ص24.

(14)مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد المنصور شاهين، دار الفكر دمشق،د(ط)، 1985ص103.

(15) محمّد شاويش، مالك بن نبي و الوضع الراهن، مرجع سابق.ص26.

(16) المرجع نفسه.ص26.

(17) المرجع نفسه.ص27.